تفسير إبن كثير

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

لما ضرب الله تعالى [مثل] قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد ، فقال : (في بيوت أذن الله أن ترفع) أي : أمر الله تعالى برفعها ، أي : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة : (في بيوت أذن الله أن ترفع)) قال : نهى الله سبحانه عن اللغو فيها . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبير ، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين .وقال قتادة : هي هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، ببنائها ورفعها ، وأمر بعمارتها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعبا كان يقول : إن في التوراة مكتوبا : " ألا إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم زارني في بيتي أكرمته ، وحق على المزور كرامة الزائر " . رواه

عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره .وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطييبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت في ذلك جزءا على حدة ، والله الحمد والمنة . ونحن بعون االله تعالى نذكر هاهنا طرفا من ذلك ، إن شاء االله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي االله عنه ، قال : سمعت رسول االله صلى االله عليه وسلم يقول : " من بنى مسجدا يبتغي به وجه االله ، بنى االله له مثله في الجنة " . أخرجاه في الصحيحين .وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ، رضي االله عنه ، قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " من بنى مسجدا يذكر فيه اسم االله ، بنى االله له بيتا في الجنة " .وللنسائي عن عمرو بن عبسة مثله . والأحاديث في هذا كثيرة جدا .وعن عائشة رضي االله عنها ، قالت : أمر رسول االله صلى االله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي . ولأحمد وأبي داود ، عن سمرة بن جندب نحوه .وقال البخاري : قال عمر : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس .وروى ابن ماجه عنه قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا

مساجدهم " . وفي إسناده ضعف .وروى أبو داود عن ابن عباس رضي االله عنهما ، قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " ما أمرت بتشييد المساجد " . قال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصاربوعن أنس رضي االله عنه ، قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد " . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذيوعن بريدة أن رجلا أنشد في المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي صلى االله عليه وسلم : " لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له " . رواه مسلم .وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول االله صلى االله عليه وسلم ، عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار في المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذي : حسن .وعن أبي هريرة ، رضي االله عنه ، أن رسول االله صلى االله عليه سلم : قال : " إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا : لا أربح االله تجارتك . وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد ، فقولوا : لا رد االله عليك " . رواه الترمذي ، وقال : حسن غريب .وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعا ، قال : " خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقا ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس

، ولا ينشر فيه نبل ، ولا يمر فيه بلحم نيء : ولا يضرب فيه حد ، ولا يقتص فيه من أحد ، ولا يتخذ سوقا " .وعن واثلة بن الأسقع ، عن رسول االله صلى االله عليه وسلم قال : " جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها في الجمع " .ورواه ابن ماجه أيضا وفي إسنادهما ضعف .أما أنه " لا يتخذ طريقا " فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه . وفي الأثر : " إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه " .وأما أنه " لا يشهر فيه بسلاح . ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل . فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه; ولهذا أمر رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها; لئلا يؤذي أحدا ، كما ثبت في الصحيح .وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث .وأما أنه " لا يضرب فيه حد ولا يقتص " ، فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .وأما أنه " لا يتخذ سوقا " ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بني لذكر االله والصلاة

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : " إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها " . ثم أمر بسجل من ماء ، فأهريق على بوله .وفي الحديث الثاني : " جنبوا مساجدكم صبيانكم " ، وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ، ضربهم بالمخفقة - وهي الدرة - وكان يعس المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحدا ." ومجانينكم " يعني : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم ، فيؤدي إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ، ونحو ذلك ." وبيعكم وشراءكم " كما تقدم ." وخصوماتكم " يعني : التحاكم والحكم فيه; ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد ، بل يكون في موضع غيره; لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط الذي لا يناسبه; ولهذا قال بعده : " ورفع أصواتكم " .وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن قال : حدثني يزيد بن خصيفة ، عن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائما في المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : اذهب فأتني

بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما؟ أو : من أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما : ترفعان أصواتكما في مسجد رسول االله صلى االله عليه وسلم .وقال النسائي : حدثنا سويد بن نصر ، عن عبد االله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدري أين أنت؟ وهذا أيضا صحيح .وقوله : " وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم " : تقدما .وقوله : " واتخذوا على أبوابها المطاهر " يعني : المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبا من مسجد رسول االله صلى االله عليه وسلم آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضئون وغير ذلك .وقوله : " وجمروها في الجمع " يعني : بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد االله ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبد االله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر ; أن عمر كان يجمر مسجد رسول االله صلى االله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به واالله أعلم .وقد ثبت في الصحيحين عن رسول االله صلى االله عليه وسلم أنه قال : " صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي

سوقه ، خمسا وعشرين ضعفا . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة "وعند الدارقطني مرفوعا : " لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد " .وفي السنن : " بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة " .والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال : أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم " [قال : أقط؟ قال : نعم] . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم .وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو : أبي أسيد - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك " .ورواه النسائي عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [مثله] .وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى

االله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبي صلى االله عليه وسلم وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبي صلى االله عليه وسلم وليقل : اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم " .ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما .وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن عبد االله بن حسن . عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول االله صلى االله عليه وسلم قالت : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : " اللهم ، اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك " . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : " اللهم ، اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك " .ورواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل; لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .فهذا الذي ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك لحال الطول . كله داخل في قوله تعالى : (في بيوت أذن االله أن ترفع) .وقوله : (ويذكر فيها اسمه) أي : اسم االله ، كقوله : (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) [الأعراف : 31] ، وقوله (وأقيموا وجوهكم

عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) [الأعراف : 29] ، وقوله (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) [الجن : 18] .قال ابن عباس : (ويذكر فيها اسمه) يعني : يتلى فيها كتابه .وقوله : (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أي : في البكرات والعشيات . والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار .وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني بالغدو : صلاة الغداة ، ويعني بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده .وكذا قال الحسن ، والضحاك : (يسبح له فيها بالغدو والآصال) يعني : الصلاة .ومن قرأ من القرأة " يسبح له فيها بالغدو والآصال " - بفتح الباء من " يسبح " على أنه مبني لما لم يسم فاعله - وقف على قوله : (والآصال) وقفا تاما ، وابتدأ بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر .ليبك يزيد ، ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائحكأنه قال : من يبكيه؟ قال : هذا يبكيه . وكأنه قيل : من يسبح له فيها؟ قال : رجال .وأما على قراءة من قرأ : (يسبح) - بكسر الباء - فجعله فعلا وفاعله : (رجال) فلا يحسن الوقف

إلا على الفاعل; لأنه تمام الكلام .فقوله : (رجال) فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عمارا للمساجد ، التي هي بيوت االله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا االله عليه) [الأحزاب : 23] .فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن; لما رواه أبو داود ، عن عبد االله بن مسعود ، رضي االله عنه ، عن النبي صلى االله عليه وسلم قال : " صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها " .وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثني عمرو ، عن أبي السمح ، عن السائب مولى أم سلمة عن أم سلمة - رضي االله عنها ، - عن رسول االله صلى االله عليه وسلم أنه قال : " خير مساجد النساء [قعر] بيوتهن " .وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا هارون ، أخبرني عبد االله بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد االله بن سويد الأنصاري ، عن عمته أم حميد - امرأة أبي حميد الساعدي - أنها جاءت النبي صلى االله عليه وسلم فقالت : يا رسول االله ، إني أحب الصلاة معك قال : " قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ،

وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي " . قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه ، فكانت تصلي فيه حتى لقيت االله ، عز وجل . لم يخرجوه .هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط أن لا تؤذي أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما ثبت في الصحيحين عن عبد االله بن عمر أنه قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " لا تمنعوا إماء االله مساجد االله " .رواه البخاري ومسلم ، ولأحمد وأبي داود : " وبيوتهن خير لهن " وفي رواية : " وليخرجن وهن تفلات " أي : لا ريح لهن .وقد ثبت في صحيح مسلم ، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت : قال لنا رسول االله صلى االله عليه وسلم : " إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا " .وفي الصحيحين عن عائشة ، رضي االله عنها ، أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول االله صلى االله عليه وسلم ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ، ما يعرفن من الغلس .وفي الصحيحين أيضا عنها أنها قالت : لو أدرك رسول االله صلى االله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بني إسرائيل .